فى المذهب الرمزى

للأستاذ زكى طليمات

مفتش التمثيل بوزارة المعارف

« كتبنا فى العدد الماضى نقداً (لفرق الطريق) وهى مسرحية تنزع نزعة رمزية فى مبناها ومعناها كتبها الأستاذ بشر فارس فجاءت تحفة فنية رفيعة . ومقال اليوم بحث فى الرمزية على القدر الذى لا تضيق به صفحات الرسالة » زكى

الرمزية إحدى الاتجاهات النفسية فى الإفصاح والتبيين ، فهى وسيلة من وسائل التعبير عن خلجات النفس تتجاوز الرمز بشىء إلى شىء آخر ، إلى إظهار الغامض والمبهم والتائه فى مغلقات الروح ، وتسجيل أصداء العقل الباطن

الرمزية طريقة فى الانسان

ليس الرمز بالشىء الجديد فى نتاج الشعور الإنسانى . ولو رجعنا إلى الوراء نتأثر مصدر الرمز لوجدناه بعيداً فى أغوار الشعور الإنسانى منذ القدم ؛ فقد سجل الإنسان الغائر فى أجواف الماضى بالنقش على الحجر والحفر على جدران المغاور ، خلجات نفسه ونجى التائه فيها ، بعد أن أعياه الفكر فى الكشف عنها ومعرفة بواعثها ، فجاءت رموزاً تومئ ولا تفصح الافصاح كله عن أصداء النفس ولوامعها . بل من الرمز انبثقت العقائد لدى الوثنيين . وما سائر طرائق الوثنية إلا رموز متتابعة لحيرة النفس أمام عجزها عن تفهم المظاهر الطبيعية الغامضة وقصورها عن إدراك أسرار القوى الخفية كالقدر والحياة والموت والبعث

فلما كد الذهن مستنبطاً أوضاعاً للحياة مصطنعاً دعائم المدنية ، وتقدم شأن العلم فحسر اللثام عن حقائق لم تتح معرفتها للأولين ضعفت النزعة إلى الرمز بعض الشىء ، ولازمها الضعف منزلاً بها الشحوب والهزال كما دق الفكر فى وضع الصيغ واستنباط القيم ، وكلما كشف العلم عن حقول جديدة خفية من مظاهر الكون . وسرعان ما شغل الإنسان باللموس من الأشياء عن التفكير وراء اللمس والحس ، وصارت خلجات النفس تصدر مصنوعة فى قوالب ، فكانت (كلاسيكية) التفكير والأدب والفن وقويت دعوة العلم بعد أن هيمن الإنسان على القوى الطبيعية فنظم عملها ، وسخرها لمنفعته ولرفاهيته هازئاً بما راعه من جبروتها الأول ؛ ولكن ليتلقى سخريتها أحياناً وهو كظيم حينما يعاودها هذا الجبروت ، وهو طبيعة فيها ، فينفلت قيادها من يده وتطغى على قدرته . وبلغت هذه الدعوة أوجها فى أوائل النصف الأخير من القرن الماضى بعد أن سخر البخار في وسائل النقل وإدارة الآلة ، وجاء العلم (بالمعمل) يفسر الغوامض ويحلل المركبات فقويت نزعة الإنسان إلى الأخذ بما ينتجه التحليل ، وصار العقل الصرف هو الميزان لديه فى الحكم على كل ما يقع عليه الحس وما لا يقع ، فاستنبط الفكر متأثراً (بالمعمل) ، واقعية الأدب والفن ، وهى النقل المجرد عن الطبيعة فى المحسوس والمرئى الظاهر من الأشياء ، وبذلك كمل طغيان المحسوس على ما وراء الحس

بيد أنه على الرغم من طغيان المحسوس على ما وراء الحس فإن النزعة الرمزية لم تمت فى النفس ، بل كانت لها يقظات خلال هذه المراحل المتوالية من التقدم الذهنى ، ترفع صوتها كلما راعها القصور عن إدراك كنه الحالات التى تعترضها

وما (رومانسية) الأدب والفن إلا مظهر شاحب من هذه الحالة ، وهى نزعة حطمت فى وقت ما القوالب والصيغ الكلاسيكية التى هى من فعل الفكر الخالص ، وأرسلت من القلب خلجة إحساسية مترعة ، وكان ذلك فى أواخر القرن السادس عشر فى انجلترا ، ثم فى أوائل القرن التاسع عشر فى فرنسا

وليس هذا بالأمر العجيب المستغرب ، فالانسان يحيا بغرائزه أحياناً أكثر مما يعيش بعقله الخالص . وآية ذلك أن الإنسان ما برح يخاف الموت وهو موقن بعقله أنه نهاية محتمة على كل حى

وكان بعد ذلك أن أفلس العلم فى كثير من المسائل الحيوية على الرغم من اختراع الكهرباء وتنظيم شئون الحياة ، فقلل العلم من غلوائه فى تفسير كل شىء ، وأخفت من صوته في دعواه الكشف عن كل غامض ، وسرعان ما استيقظت نزعة الرمز من جديد ، وبرز لها طابع فى أدب أهل الشمال من أوروبا ، وهم قوم يسكنون بلاداً يخفى الضباب معالمها فى وضح النهار ، وتطغى قتمة السحب على زرقة السماء طوال العام إلا أشهراً معدودة

هنريك ابسن وشعراء الرمزية

فطلع (أبسن) — وذلك فى أقصى الشمال ببلاد النرويج — بروايات رمزية أهمها (براند) و (بيرجينت) ، وانحدرت الرمزية

إلى البلجيك وهولندا ، فلاقت مستقراً خصباً إذ الطبيعة فى تلك البلاد تبدو كأنها غارقة فى التفكير والتروى والمراجعة ، وسرت عدوى الرمزية إلى فرنسا فطبعت أدبها وفنها ردحاً من الزمن تحتفظ منه واعية الأدب بأسماء (فيرهارين) و (رودنباخ) و (فان لربرج) و (رامبو) و (فيرلين) و (مالارميه) فى الشعر ، ثم (ماترلنخ) فى الروايات التمثيلية . وكانت الحقبة الأخيرة من القرن الماضى عصر ازدهار للأدب الرمزى فى فرنسا ، وكانت الحركة فى صميمها نزعة إلى التحرر من أدب الواقع والملموس إلى ارتياد آفاق جديدة طلباً للبحث عن الغامض من العواطف والتائه من الخلجات فى منعطفات الروح ومثانى المادة ؛ وهاديهم فى البحث والتنقيب الإحساس المرهف والإدراك المحض (والتخيل المنسرح) ، وصاغوا ما انتهوا إليه فى أسلوب طريف مترع بالأخيلة مشرق بالروحانية . إلا أنه كان للبعض منهم شطحات فى الخيال ، وجولات بعيدة فيما وراء المادة ؛ وغوص عميق فى متاهات القلب لم يخرجوا منه بكثير يؤبه له

ولا يتسع هذا المقام للإحاطة بالرمزية فى آداب الأمم الأخرى

الرمزية فى الأدب الاسلامى

أما فى العربية الاسلامية ، فالصوفية أبين مظاهر الرمزية . إلا أن الرمزية كانت لدى العرب علماً وليست فناً ؛ وبين العلم والفن فارق معروف ، ولذلك لم تفرض طابعها على كثير من الأدب الاسلامي ، وإن استقامت لها طريقة فى شعر (الخيام) وأمثاله ، ومن أخذ عنهم ، أو نحوا نحوه

والرمزية عند (الخيام) ضرب من الفورة الحسية حلت فيها عبقة روحانية

ولعل السبب فى أن الأدب العربى لم ينحرف إلى الرمزية الغامضة فى كثير من نتاجه ، ويخرج عن الواقعية و (الكلاسيكية) يرجع إلى الطبع البدوي الذى يميل إلى الوضوح والبساطة ، وإلى طبيعة البلاد التي نشأ ودرج وشب فيها ، حيث الشمس تسطع من أول النهار إلي آخره في سماء صافية متدخلة فى الثنايا والشقوق ، كاشفة عن ظواهر الأشياء فى جلاء ساطع ، كما أن الأد ، الإسلامى لم يخرج عن الأوضاع الذى أورثه إياها الأدب الجاهلى ، واقتصر أمر التوليد فيه على التنميق فى الصيغ الشكلية

ويقيني أننا نتحرج إذا قضينا بأن الأدب العربى أو الاسلامى لم يعرفا الرمزية فى تراثهما الكبير ، إذ أن معين هذين الأدبين هو نفس المعين الذى أخذ منه الأدب الأوربى ، ألا وهو النفس البشرية . ومابرح البحث والاستقراء يتعقبان مخلفات الأدب العربى والاسلامى ، وهى مخلفات ، ويالأسف ، ما برحت مشتتة فى دور الكتب ما بين أوربا وأمريكا ليلقيا كل حين ضوءاً جديداً عليها

هذا والرمزية كما أسلفنا شيء كامن فى النفس ، تبدو صريحة كلما استشفتها الرغبة الذهنية إلى التطلع إلى ما وراء المحسوس ، وهو الباطن الغائر فى أعماق النفس ، أو كلما أحست النفس بهزيمة العقل أمام الغامض من الأمور . وهانحن أولاء فى القرن العشرين ، وهو قرن أصبحت للعلم فيه دولة ، ومع ذلك فقد قامت نظريات جديدة تدحض نظريات علمية وفلكية اتفقت عليها الآراء وقطعت بصحتها منذ مئات السنين . وهناك بديهيات عديدة ما برح للعقل فيها حيرة . ولم يبالغ (بوانكاريه) حينما قرر أن تقدم العلم تقدم آلى عجيب ، إلا أنه عجز عن أن يكشف الكشف الكامل عن كثير من الحقائق

الرمزية فى الأدب العربى المستحدث

أما ما يحضر أذهاننا من آثار الرمزية فى الأدب العربى المستحدث فينحصر فى كتابات (جبران خليل جبران) وهو لبنانى المولد عاش دهراً طويلاً من حياته فى المهجر الأمريكى فتأثر بكثير من كتاب الغرب ، واستقامت فى كتاباته طريقة رمزية تخالطها نزعة رومانسية . وقرأنا بعد ذلك شعراً رمزياً فى الأداء للدكتور بشر فارس وذلك منذ عشر سنوات فى مجلة المقتطف

وفى مؤلفات (توفيق الحكيم) نلمح الرمزية لامعة فى بعض ما أخرجه للمسرح ، ولا سيما فى روايته (شهر زاد) . وليس فى هذا ما يبعث على العجب ، فلتوفيق الحكيم نزعة صوفية أصيلة ؛ كما أنه أحسن استيعاب مسرحيات الايطالى (بيراندللو) ، وهو أبرز مؤلفى المسرحية الرمزية فى هذا العصر ؛ وتفهم مسرحيات الفرنسى (لونورمان) ؛ وليست مؤلفات (فرويد) و (بيرجسون) مما لم يحسن مطالعتها

فبشر فارس وتوفيق الحكيم يفترقان من مصدر واحد ، الأول يكتب متشبثاً بما تلقنه ، والثاني يؤلف بطبعه وخياله ، إلا أن لكل منهما طرائقه فى التعبير عن رمزيته ، وكلاهما يعيش بذهنه فى أوربا ويحيا بجسمه فى القاهرة .

زكى طليمات